الخصائص الموضوعية للقصيدة المدحية في العصر الجاهلي، نماذج مختارة

م.د. فاطمة غضبان عودة[1]
[1]الجامعة التقنية الوسطى/معهد إعداد المدربين التقنيين (العراق)

The objective characteristics of the praise poem in the pre-Islamic era, Selected examples

[1] Dr. Fatimah ghadhban auda*
https://orcid.org/0009-0004-7983-6536
[1] Central Technical University- Institute for preparing technical trainers (Iraq), fatimah-ghadhban@mtu.edu.iq

تاريخ الاستلام: 27 / 08 /2024 تاريخ القبول: 20 / 10 / 2024 تاريخ النشر: 01 / 12 / 2024

الملخص:

المدح في الشعر القديم كان من الأغراض الرئيسة؛ لاتصاله بالحياة القبلية، ويدافع فيه الشاعر عن قبيلته ويمدح سادتها، وفرسانها، ولا يجد الشاعر غضاضة لأنه يعود إليه وهو فرد من أفراد قبيلته؛ لذلك نحاول وضع ملامح وحدود لفن المديح كونه من الفنون الشعرية القديمة للشعر العربي. هذا الغرض الشعري من آنس الفنون للعاطفة الإنسانية وأقربها، فحاول البحث أن يصل الى قواعد، وأسس، وأصول لهذا الفن بمعنى دقيق ولكن لضيق المقام ولكون هذا البحث محدد بصفحات ووقت لا يتسع له بأن ينظر بالمعنى الدقيق لمفهوم النظرية، حاول أن يضع الخطوط العريضة لهذا الفن.

والسبب في اختيار الباحث (فن المديح)؛ إن هذا الغرض هو أكثر الأغراض الشعرية العربية تناولًا، مما يتيح للباحث أن يتلمس الملامح النظرية لهذا الغرض الشعري.

قُسمت مادة البحث على مبحثين، تناول المبحث الأول موضوع القصيدة المدحية مفصلة في الخصائص النفسية(المعنوية)، مثل الكرم، والشجاعة، والحلم، والعلم، والعدل، والعفة .... الخ. وتناول المبحث الثاني الخصائص المادية، من جاه، وجمال، وغنى، وعراقة النسب .... الخ. ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث، تركيز العرب في مديحهم، على المعاني، والفضائل النفسية، وعدَّوا مَنْ مُدِح بغيرها، بأنه ليس مديح على الحقيقة، اختلاف معاني المديح باختلاف الممدوحين، ويجب النظر في صحة المعاني وسلامتها من الإفراط؛ الذي قد يقع من المبالغة، قد يصل الى حدّ المستحيل، عدَّوا الخصال التي وظفها الشعراء القدامى وما يتفرع منها لا تصلح جميعها للمدح إلاّ ضمن شروط.

كلمات مفتاحية: الخصائص.، الموضوعية.، المدح.، الفضائل النفسية.، الفضائل المادية.

Abstract:

Praise in ancient poetry was one of the main purposes. The reason the researcher chose (the art of praise): This purpose is the most widely discussed purpose of Arabic poetry, which allows the researcher to touch upon the theoretical features of this poetic purpose.

The research material was divided into two sections. The first section dealt with the topic of the praise poem in detail about the psychological (moral) virtues, such as generosity, courage, forbearance, knowledge, justice, chastity... etc. The second section dealt with material virtues, such as prestige, beauty, wealth, lineage,

*Corresponding author.

etc. One of the most important findings of the research is that Arabs focus their praise on meanings And the psychological virtues, and they considered those who are praised for other than them, that it is not praise in reality. The meanings of praise differ according to those praised, and the validity of the meanings and their safety from excess must be considered. What may occur as a result of exaggeration may reach the point of the impossible. Consider the qualities employed by ancient poets and those that stem from them. Not all of them are suitable for prais except within certain conditions.

Keywords: Characteristics; Objectivity; Praise; Psychological characteristics; Physical properties.

مقدمة:

الشعر العربي من قديم أيامه كان مزيجًا من الوصفي والغنائي والقصصي، والوصف ركن مهم طرقه الشعراء القدامى في شتى ابوابه، وأغراضه، فكانوا يصفون ما يرونه في البادية من حيوان، وصحراء، وطبيعة.

فالمدح في الشعر القديم كان من الأغراض الرئيسة لاتصاله بالحياة القبلية، ويدافع فيه الشاعر عن قبيلته ويمدح سادتها، وفرسانها، ولا يجد الشاعر غضاضة لأنه يعود إليه وهو فرد من أفراد قبيلته؛ لذلـك رأت الباحثة أن تحاول وضع ملامح وحدود لفن المديح كونه من الفنون الشعرية القديمة للشعر العربي.

هذا الغرض الشعري من آنس الفنون للعاطفة الإنسانية وأقربها، فالأنسان منذ أن التفت للآلهة، وعبدها، وأثنى عليها عرف هذا الفن وخلقه، حاول البحث أن يصل الى قواعد، وأسس، وأصول لهذا الفن بمعنى دقيق ولكن لضيق المقام ولكون هذا البحث محدد بصفحات ووقت لا يتسع له بأن ينظر بالمعنى الدقيق لمفهوم النظرية، حاول أن يضع الخطوط العريضة لهذا الفن، بما يمكن التوسع به وأحاطته من كافة الجوانب في دراسة أخرى يكون المجال فيها فسيحًا وهذا أملنا كله بإذن الله.

والسبب في اختيار الباحث (فن المديح) إن هذا الغرض هو أكثر الأغراض الشعرية العربية تناولًا، مما يتيح للباحث أن يتلمس الملامح النظرية لهذا الغرض الشعري.

قُسمت مادة البحث على مبحثين، تناول المبحث الأول موضوع القصيدة المدحية مفصلة في الخصائص النفسية، مثل الكرم، والشجاعة، والحلم، والعلم، والعدل، والعفة .... الخ.

وتناول المبحث الثاني الخصائص المادية، من جاه، وجمال، وغنى، وعراقة النسب .... الخ.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث: ركزَّ العرب في العصر الجاهلي مديحهم، على المعاني، والفضائل النفسية، وعدَّوا مَنْ مدح بغيرها، بأنه ليس مديح على الحقيقة، اختلاف معاني المديح باختلاف الممدوحين، فلا يمكن مثلا أن يصف كاتبًا بالكرم أو الشجاعة، كما لا يمكن أن يصف خليفةً أو واليًا بحسن الخطِّ والفطنة التي هي من معاني وصف الكاتب، ويجب النظر في صحة المعاني وسلامتها من الإفراط؛ الذي قد يقع من المبالغة، قد يصل الى حدّ المستحيل، الخصال التي وظفها الشعراء القدامى وما يتفرع منها لا تصلح جميعها للمدح إلاّ ضمن شروط.

التمهيـــد:

بما إن بحثي في وضع نظرية للمديح وليس في مادة البحث ما يوجب التعريف أو التوضيح وضعت تمهيدًا أقوم به بالتعريف بالنظرية لغةً واصطلاحا، والتعريف بالمدح لغةً واصطلاحا.

تعريف النظرية لغةً:

يقول الزبيدي: ((نَظَرَه – يَنظرهُ نظر إليـه نظـرًا مُحركَة قال الليث بقصد الخليل بن أحمد الفراهيدي: يجوز تخفيف المصدر نحملهُ على لفظ العامة من المصـادر (ومنظرًا) كمقعـد (ونظرنـا) بالتحريك ومَنظَره بفتح الأول والمثال تنظارًا بالفتح قال الحطيئة (1 صفحة 32):

فما لك تنظار إليها كما نَظَر اليتيمُ الى الوصيّ

أي (تأمله بعينه) هكذا فسره الجوهري.

وفي البصائر أيضًا تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد بـــه (التأمل والتفحـص)، وقد يـراد بـه (المعرفة الحاصلة بعد الفحص)، قال الفرّاء، يُقال: فلان نظورة قومه، ونَظيرة قومه وهو الذي يَنظر إليه قومهُ فيتمثلون ما أمتَثله وكذلك هو طريقتهم بهذا المعنى، يقول ابن السَّكيت : والنظر مَحركَة الفكر في الشيء تقدرّه وتقيسه)) (2 صفحة ج12 / 223) وهو مجاز.

تعريف النظرية اصطلاحًا:

إن لفظ (نظرية) مصطلح مشترك بين العلوم جميعاً وأداة علمائيـة (DIDACFIQUE) لجميع قواعدها وأصولها. ويعد مصطلح (نظرية) المفاهيم الفلسفية الغربية، من أسهل التعاريف وأبسطها هي: ((مجموعة من الأفكار، والمفاهيم المجردة، المنتظمة على نحو ما، وتطبق على ميادين من المعرفة خاصة. وهي مجموعة موضوعات قابلة للبرهنة، والقوانين المنتظمة وتخضع للفحص التجريبي، وتكون غايتها وضع حقيقة لنظام علمي)) (3 صفحة ج1/ 258).

فعند الزمخشري أصل النظرية من (النظر) وتأتي بمعانٍ كثيرة وبالنظر في معاجم العربية نراها آتية أما من (نَظَرتُ في الكتاب) بمعنى تأملته وتدبرت في مضمونـه، أي فيمـا فيـه من مسائل وقضايا.

أو من (وبيننا نظر، أي قدرَ نظر في القرب) فيكون المعنى إن النظرية معنويًا، إلى الغاية التي تتحكم فيها فقط، فهي لا تخوض فيما لا تستطيع التحكم فيه، أي لا تخوض فيما لا تستطيع أن تبرهن عليه (4 صفحة 545).

المدح لغةً واصطلاحًا:

جاء في كتاب القاموس لفيروز آبادي: " مَدَحَه كمَنَعهُ، مَدحًا ومدحة : أحسن الثناء عليه ...، والمديح الأمدُوحَة مايمُدحُ به، جمعهُ : مدائح" (5 صفحة ج20/ 212)، وفي تاج العروس ((قال أبو ذؤيب مستعملًا كلمة المدحة والأماديح : لو إنّ مدحةَ حيٍّ أنشرت أحدًا أحيا أبوَتكَ الشُّم الأماديح)) (2 صفحة ج17/ 225). ذكر ابن منظور في اللسان: ((المدَحُ نقيض الهجاء وهو حُسن الثناء)) (6 صفحة ج14/ 292).

وفي اصطلاح أهل الأدب المدح: هو وصف الشاعر غيرهُ بالفضائل، وثناءهُ عليه.

موضوع القصيدة المدحية

المبحث الأول

الخصائص النفسية

إن الغاية من المديح هو التقرب إلى الممدوح، فوجب على المادح أن يتقرب بالأمور الثابتة التي لا تتغير، والمعروف إن الأمور الحسية زائلة، تنفى عنها صفة الثبوت، وتتغير بتغير الزمن، أو الصحة، أو الحال، والمعروف أن الثابت يكون صفة ملازمة للأمور الأخلاقية، حيث لا تتغير ألَّا في النادر القليل، لذلك جعل العرب مدحهم مُنصبًا على الأخلاق العربية ومكارمها حتى قبل الإسلام وهذا ما يُلاحظ في شعر زهير بن أبي سلمى (7 صفحة 96):

لو كنت من شيْ سوى بشر　　كنت المنيرَ ليلةَ البدر
ولأنت أجود من الرَ　　يَّان وما جاء بالعطر
ولأنت أشجع من أسامة إذا　　رأب الصريخُ ولجّ في الذعر
ولأنت أحيا من مخذرة　　عذراء تقطن جانب الخدر
ولأنت أبيَّن حين تنطق من　　لقمان لما عيّ بالمكر

حيث وصف ممدوحهُ بالأخلاق الحميدة عند العرب، وذلك قبل الإسلام، فعندهم صفة عامة إن أجود المدح ما كان قائمًا على الأخلاق الحميدة، فابن طباطبا يرى أن ما وجدتهُ العرب في أخلاقها ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضدِّ حالها فيه خلال مشهورة كثيرة وهي عنده في الخُلق، والشجاعة، والسخاء، والحلم، والحزم، والعلم، والوفاء، والعفاف، والأمانة، والعقل، والبرّ، والقناعة، والغيرة، والصبر، والصدق، والورع، والشكر، والعفو، والعدل، والاحسان، وصلة الرحم، وكتم السر، وأصالة الرأي، والدهاء، والانفة، والمداراة، وعلو الهمة، والبيان، والتواضع، والجلد، والتجارب، والبِشر، والنقض، والإبرام (8 الصفحات 18- 19).

وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرها ابن طباطبا من قرى للأضياف، وأعطاء العُفاة، وحمل المغارم، وقمع الأعداء، وكظم الغيض، وفهم الامور، والتشمير، وقمع النَّفس، والإيثار، وحفظ الودائع، والمجازاة، ووضع الأشياء موضعها، والذب عن الحريم، واجتلاب المحبة، والتنزه عن الكذب، والاحتراز من العدو، وسيادة العشيرة، واجتناب الحسد، والكناية في الخير، واصلاح كل فاسد، وحفظ الجار.

ويكاد لا يختلف اثنان من الأدباء والنقاد على هذه الخصال، إنها الأصل في المدح، كما قال قدامة في نعت المديح : "إنه لما كان فضائل الناس، من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه من أولي الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال الأربع مصيبًا والمادح بغيرها مخطئًا" (9 صفحة 95) وهو يُجوِّز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض ولأغراق فيه دون البعض، ويرد مثلًا أن يصف الشاعر انسانًا بالجود الذي هو أحد أقسام العدل وحدِّه، فيغرق فيه، ويتفنن في معانيه، أو يقتصر عليه، دون غيره، فلا يسمى مخطئًا لإصابته في مدح الأنسان ببعض فضائله، لكنه يُعدُّه مقصرًا عن استعمال جميع خلال المدح، فأوجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال، لا بغيرها، والبالغ في التجويد الى أقصى حدوده من استوعبها، ولم يقتصر على بعضها، مستشهدًا ببيتٍ لزهير بن أبي سلمى، في مدح هرم بن سنان :

أخا ثقة لا تهلك الخمرُ مالهُ　　ولكن قد يهلكُ المال نائله

فوصفه في هذا البيت بالعفة؛ وذلك عنده لقلة امعانه في اللّذات؛ وإنه لا ينفد مالهُ فيها وبالسخاء؛ لإهلاكه ماله في النَّوال، وتركه كلَّ الملذات، وهو العدل، متكأً في رأيه على قول زهير في البيت الثاني:

تراهُ إ ذا ما جئتَهُ مُتهلِّلًا　　كأنك مُعطيه الذي أنت سائلُه

فزاد في وصف السخاء بأن جعله يفرح له، ولا تكره لفعله، ولا يلحقه مضض، ثم أورد بيت آخر لزهير:

فمن مثلُ حصنٌ في الحروب ومثلهُ لإنكار ضيمٍ أو لخصمٍ يُجادله

فيرى إنَّ في هذا الوصف جاء بالشجاعة، والعقل فأستوعب زهير في أبياته هذه المديح بأربع خصال، التي هي فضائل ٱلإنسان على الحقيقة، وزاد في ذلك ما هو كثير الناس لا يعلم وجه دخوله، – وأن كان داخلًا في هذه الأربع– حيث يقول (أخا ثقة) صفةً له بالوفاء، والوفاء داخل في هذه الفضائل التي قدم ذكرها (9 صفحة 95 وما بعدها).

ولا يقصد قدامة أن المدح يحدد بهذه الخصال ولكن كل ما يتفرع من هذه الخصال من خصال محمودة، وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والاغراق فيه دون البعض، مثل أن يصف الشاعر إنسانًا بالنجدة الذي هو أحد أقسام الشجاعة، أو بهما معًا، أو أن يقتصر عليهما دون غيرهما، فلا يسمى مخطئًا؛ لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، لكن لا يسمى مقصرًا عند استعمال جميع الخلال المحمودة.

وقد تفنن شعراء المديح في أن يصفوا حسن أخلاق الإنسان، ويعددوا أنواع الفضائل وأقسامها واصناف تركيب بعضها من بعض، وأقسامها عندهم العقل، والحياء، والبيان، وثقافة المعرفة، والسياسة، والكفاية، والعلم، والصدع بالحجة، والحلم عن السفاهة، وغير ذلك مما يجري مجراه. وأقسام العفة لديهم: طهارة الإزار، والقناعة وقلة الشرة، وغير ذلك مما يجري مجراه. وأقسام الشجاعة في رأيهم: الحماية، والدفاع، والكناية في العدو، والأخذ بالثأر، والمهابة، والسير في الهامة الموحشة، وقتل الأقران، وما شابه ذلك. وأقسام العدل فيهم: السماحة، وما يرادف السماحة التغابن، وهو من أنواعه، والتبرع بالنائل، والانظلام، وقرى الأضياف، وإجابة السائل، وما جانس ذلك (9 صفحة 97).

هذا على إن هذه الأنواع الأربعة وما تفرع منها قد يتلاقح فيما بينها، فتنتج صفات قلّ ما يشعر المتلقي أو الباحث بأن ذلك داخل في الأربعة، سواء كان ذلك على الانفراد أو التركيب، إلَّا أهل الفهم، وتنبه قدامة لذلك التلاقح وما ينتج عنه، فعنده تركيب بعضها من بعض يحدث منه ستة أقسام، فما يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة، الوفاء بالوعد، والصبر على الملمات، ونوازل الخطوب. ومن تركيب الشجاعة مع العفة، فالغيرة على الحر من إنكار الفواحش. ومن العفة مع السخاء، فينتج والإيثار على النفس، الإسعاف بالقوت، وما شاكل ذلك. ومن تركيب السخاء مع العقل، فإنجاز الوعد وما أشبه ذلك. ومن تركيب العفة والعقل، فالأقتصار على أدنى معيشة، والرغبة عن المسألة، وما شابه ذلك، ومن تركيب الشجاعة مع السخاء، والإخلاف، الإتلاف، وما أشبه ذلك (9 صفحة 98). قال وقد تنازع قومٌ، في بيت حسان في آل جفنة، وبيت النابغة (10 صفحة 278)

فإنك شمّس والملوكُ كواكب إذا طلعتَ لمْ يَبْدُ منْهنَ كَوكَبُ

قال الحاتمي: بل بيت زهير:

تَـراهُ إذا ما جئتهُ مُتَهَلِلا كَأنَكَ تعطيهِ الذي أنتَ سائلـهْ

وسأل الرشيدُ المفضلَ الضَّبيّ: أي بيتٍ قالتهُ العرب أمدح؟ فقال:

أعزُّ أبلجُ تَأتم الهداةُ بـهِ كأنـهُ علم في رأسهِ نارُ

هكذا روايتهُ فيه، قال شرحبيل بن معن بن زائدة: كنتُ أسير تحت قبة يحيى بن خالد، وقد حج مع الرشيد، وعديله أبو يوسف القاضي، إذ أتاه أعرابي من بني أسد، كان قد يلقاه إذا حجَّ فيمدحه، فأنشده شعرًا، أنكر منه يحيى بيتًا فقال: يا أخا بني أسد، أ لم أنهكَ عن مثل هذا الشعر؟! إلَّا قلتَ كما قال الشاعر:

بَنو مَطَرٍ يومَ اللقاء كأنهم أسُودٌ لها في غَيل خفّانَ أشبلُ
هم يَمنعون الجارَ حتى كأنما لجارهمُ بينَ السماكين مَنزِلُ

بهاليلُ في الإسلامِ سادوا ولَمْ يَكنْ كــأولهَم في الجاهليـةِ أولُ
هُم القومُ إن قالوا أصابوا، وإن دُعوا أجابوا، وإن أعطوا أطابَوا، وأجَزلوا

فقال أبو يوسف: لِمَنْ هذا الشعر أصلحكَ الله، فما سَمعتُ أحسنَ منه؟ فقال يحيى: يقوله ابن أبي حفصة في أبِ هذا الفتى، وأومأ إليّ، فكان قوله أسَرُ ألَيّ من جليل الفوائدِ، ثم إلتفتَ إليّ وقال: ياشرحبيل، أنشدني أجودَ ما قاله ابن أبي حفصة في أبيك، فأنشدته:

نِعْمَ المَناخُ لراغبٍ ولراهبٍ ممَنْ يصيبُ حَوائجَ الأزمانِ
مَعْنُ بن زائدةَ الذي زيدتْ بهِ شَرفا" على شرفٍ بنو شيبانِ
إن عُدّ أيامُ اللّقاءِ فإنما يوماهُ يوم ندى" ويوم طِعانِ
يَكسو الأسّرةَ والمنابرَ بهجة" ويُزينها بجهارَةٍ وبيانِ
تَمضي أسِنّتهُ ويسفر وجههُ في الحربِ عندَ تغيّر الألْوانِ
نفسي فِداكَ أبا الوليدِ إذا بدا رَهَجُ السّنابكَ والرماحُ دواني

فقال يحيى: أنت لا تدري جيد ما مدح به أبوك، أجود من هذا قوله:

تشابه يوماهُ علينا فأشكلا فلا نحنُ ندري أيُّ يوميهِ أفضلُ
أَ يَومُ نداهُ الغَمْر، أم يَومُ بأسِهِ؟ وما منهما إلاّ أغرّ مُحَجّلُ" (11 صفحة 162)

إن سبب تفضيل يحيى لهذين البيتين، جمالهما الفني فنلاحظ فيهما كيف كثف الشاعر المعنى وأوجز اللفظ، في حين نلاحظ في الأبيات الستة التي سبقتهما، كيف أطال الشاعر، ففي الأبيات الأربع الأول لم يذكر من الخلال التي ذكرها قدامة التي يعتمد عليها المدح فتكون هذه الأبيات أقرب إلى السيئة لأنها لايوجد فيها سوى الأعتزاز بالحسب والنسب.

أكد حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) على اختلاف معاني المديح باختلاف الممدوحين، فلايمكن مثلًا أن يصف كاتبًا بالكرم أو الشجاعة، كما لايمكن أن يصف خليفةً أو واليًا بحسن الخط والفطنة التي هي من معاني وصف الكاتب، فيكون مدح الخلفاء بأفضل مايتفرع من تلك الفضائل وأجلّها وأكملها، كنصر الدين، وحسن السيرة والسياسة، وإفاضة العدل، والتُقى، والعلم، والحلم، والرأفة، والرحمة، والورع، والكرم، والهيبة، وما أشبه ذلك، وينبغي أن يتخطى في أوصافهم عن جميع ذلك وأن يتقي في وصفهم، بفعال مايكون حقًا واجبًا إلى تقريضهم.

ومدح الأمراء يكون بالأوصاف إلى حيث يليق بمناصبهم، بالكرم والشجاعة، والحزم، ويُمن النقيبة، وسداد الرأي، والتيقظ والدهاء، وما ناسب ذلك، وما انتهت إليه ممالكهم، وبهذا يدرجهم حتى تكون رتبة العظماء منهم ثانية عن رتبة الخلفاء، وتتدرج مراتبهم إلى أدنى ما يتميز به الملوك عن السوقة.

ومدح الوزراء ومَن حلَّ محلَّهم من الكُتّاب يكون بالعلم، والحلم، وحسن التدبير، وتثمير الأموال والكرم، ونحو ذلك، وينبغي أن يكون الوصف في كلّ وزير على قدر مُستوزره، فيكون الوزراء الخلفاء في ذلك مزيّة لا تلحق ورتبة لا تسامى، حتى أن مراتب كثير من الملوك العظماء، ربما قصرت عن مراتبهم، ثم تتدرج مراتبهم في ذلك على نحو مراتب الملوك.

ومدح القضاة يكون بالعدل بين الخصوم، والعلم، والدين، والنزاهة، وانصاف المظلوم، والتقى، وما جرى ذلك المجرى. ولهم أيضًا مراتب فيما ينبغي أن ينحلوه من الأوصاف، فيدرجهم فيطمح بقضاة الخلفاء، ثم بقضاة الملوك ثم بقضاة الأصقاع الكبار الى حيث لا يطمح غيرهم، وينبغي أيضًا أن يكون تعظِيمهم على قدر عظمهم في علومهم، وعقولهم، ودينهم.

قد تبيَّن من هذا إن أمداح الخلفاء يجب أن يكون نمطًا واحدًا ينحى بأوصافها أبدًا نحوا لإفراط، وأن أمداح الأمراء والوزراء والقضاة ومن جرى مجراهم من كبار العلماء، ينبغي أن يكون كل واحد منها ثلاثة أنماط:

ينحى بالنمط الأعلى منحنى الإفراط، وينحى بالنمط الأدنى منحنى الاقتصاد، وتكون أوصاف النمط الأوسط اقتصادية مشوبة ببعض الإفراط وذلك بحسب ما بيَّناه من إختلاف درجات الممدوحين في ضخامة الخطط وفخامة الولايات فعلى هذا الترتيب يجب أن يكون المدح، وأن يحافظ على ما يجب اعتماده في أمتداح كل طبقة من الممدوحين: فلا يسمى بها إلى الرتب التي فوقها ولا يُحط بها ما دونها.

ويتابع ابن رشيق وحازم القرطاجني وقدامة بن جعفر، في أنَ مَدائح الرجال تقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس، "وقد ينبغي أنْ يُعلم ان مدائح الرجال، تُقسم أقسامًا بحسب الممدوحين من أصناف الناس، في الارتفاع والاتضاع، وضروب الصناعات، والتبدي والتحضر، وأنه يحتاج للوقوف على المعيَّن بمدح كل قسم من هذه الأقسام" (9 الصفحات 180-184) فعندهم من إصابة الوجه في مدح الملوك، قول النابغة الذبياني في النعمان بن المنذر (12 صفحة 56):

ألم تَر إنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ترى كلَّ مُلكٍ دونَها يتذبذبُ
فإنَّك شمسٌ والملوكَ كواكبٌ إذا طلعتَ لم يبدُ منها كوكبُ

وأما مدح ذوي الصناعات، كأن يكون الوزير والكتّاب، بما يليق بحسن التنفيذ، والسياسة، فإن أنضاف إلى ذلك الوصف، الاستغناء بحضور الذهن، والعجل في اصابة الحزم، عن الإبطاء لطلب كان أحسن للمدح، كما قال أشجع –شاعر عباسي مشهور:

بديهتهُ مثلْ تفكيـرهِ متى رُمْتَهُ فهو مُسْتَجمِـعُ

وأما مدح القائد في ما يجالس النجدة، والبأس، ويدخل في باب شدّة البطش، والبسالة فأن أُضيف الى ذلك المدح السماحة، والجود، والتخرق في البذل والعطية كان المديح حسنًا تامًا، .

ومدح عامة الناس إن كانوا من البدو والحاضرة فينقسم على قسمين، بحسب انقسـام العامة وحرفهم إلى المتعيشين بأصناف الحِرف، وإلى الصعاليك والحروب اللصوص ومن جرى مجراهم، فمدح القسم الأول يكون بما يُضاهي الفضائل النفسية خاليًا من مدح الملوك ومن قدمنا ذكره من الوزراء والقواد مثل قول الشاعر:

يتراحمون ذوو يسـارهِـمُ يتعاطفون على ذوي الفقر
وذوو يســارهم وكأنهـم من صـدق عفتــهم ذوو
وعـرّ وتحملين لطيبِ خيمهم لا يهلعون لنبـــوة الدّهـرِ

ومدح القسم الثاني-هم الصعاليك ومن في حكمهم- يكون بما يُضاهي المذهب الذي يسلكه أهله من الأقدام والفتك، والتشمير، والجدّ، والتيقض، والصبر مع التخرق، والسماحة، وقلة الاكتراث للخطوب المُلمّة كما قال تأبط شرًّا –من الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي-، يمدح صخر بن مالك:

وإني لَمهدٍ من ثنائي مقاصـدٌ به لابن عمٍّ الصدقَ صخر بن مالكِ
أهزُّ به في ندوة الحي عطفـهِ كما هزّ عطفي بالهجان الأوارِكِ
لطيفُ الحوايا يقسم الزَّادَبينـه سواءٌ وبين الذئب قسم المشـارِكِ
كأن به في البرد أثنا حيـةٍ بعيدُ الخطى شتى الهوى والمسالكِ

ويوافق ابن رشق قدامة بن جعفر وأنه ينبغي أن يكون قصد الشاعر في مدح الكاتب والوزير ما ناسب سرعة الخاطر بالصواب، وحسن الرويَّة، وقلة الغفلةِ، وشدَّة الحزمِ، وجودة النظرِ للخليفة، والنيابة عنه في المعضلات بالذات أو بالرأي، وبأنَّه حَسن السياسة، محمود السيرة، لطيف الحسِّ، فإن أضاف الى ذلك البلاغة، والخطَّ والتفنن في علم، كان المدح كاملا في الكاتب. وأفضل ما مدح به القائد عندهم الشجاعة، والكرم، وما تفرع منهما: نحو سرعة البطش، والتخرق في الهيئات

والأفراط في النجدة، وما شابه ذلك ويمدح القاضي بما ناسب، العدل، والأنصاف وتقريب البعيد في الحق، وتبعيد القريب، ونصرة الضعيف من القوي، والمساواة بين الفقير والغني، وطلاقة الوجه، ولين الخلق، وقلة المبالاة في أقامها الحدود، واستخراج الحقوق من مغتصبيها، فإن زاد في ذكر الورع، والتخرج وما شاكلهما، فقد بلغ الكمال في المدح.

وصفات القاضي كلها لائقة برادِّ المظالم، ومن يكون دون هذه الثلاث طبقات سوى طبقة الملك، فلا يرى ابن رشيق لمدحه وجهًا فإن دعت الى ذلك ضرورة مدح كلَّ إنسانٍ بالفضل في صناعته والمعرفة بطريقته التـي هو فيها (13 الصفحات ج1/ 128-129).

من هذا يتضـح تأكيد الأدباء والنقاد على مراعاة أصناف الممدوحين وطبقاتهم، وأولهم الجاحظ حيث يقول في الرسائـل: "وإعلم إنـه سيمرُ بك في معاملات الناس حالات تحتاج فيها الى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم" (14 صفحة ج1/ 117).

وحذر ابن رشيق القيرواني من إعطاء الممدوح صفات تتعدى ما به، كما يقول المثل:(من مدحك بما ليس فيك فقد ذَّمك)، فعنده إذا كان من عامة الناس "فإياك والتجاوز به خطته، فإنه متى تجاوز به خطته كان كَمنْ نقصه منها، وكذلك لا يجب أن يقصر عما يستحق، ولا ان يعطيه صفة غيره؛ فيصف الكاتب بالشجاعة، والقاضي بالحمية والمهابة، وكثيرًا ما يقع هذا لشعراء وقتنا، وهو خطأ، ألَّا أن تصحبه قرينة تدل على صواب الرأي فيه" (13 الصفحات ج1/ 122-123) والعكس صحيح أيضًا، فلا يجب أن يُمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء، وإن كان فضيلة، أي لا يُمدح مَن هو أعلى بصفات من هو أدنى؛ وإن كان محمودا.

المبالغة في المـدح:

من المعلوم إن المبالغة في المدح شيء، قد يغير المعنى إلى الضدِّ منه؛ ذلك أن المبالغة تكون على سبيل تضخيم الأمور تأخذ معنى الضدِّ؛ فيكون المعنى إلى الهجاء أقربُ منه إلى المدح يقول أبو الفرج قدامة بن جعفر: "إنَّ كل واحدة من الفضائل الأربعة المُتقدَّم ذكرها وسط بين طرفين مذمومين، وقد وصف شعراء مصيبون متقدمون قومًا بالإفراط في هذه الفضائل حتى زال الوصف الى الطرف المذموم، وليس ذلك منهم إلَّا في باب (الغلو في الشعر) من إنَّ الذي يراد به إنَّما هو المبالغة والتمثيل، لا حقيقة الشيء" (9 صفحة 167).

ومن أمثال الغلو التي يحتاج إلى ذكرها وشرح الحال فيها؛ ليبني عليه الحكم في الغلو؛ ويعلم به ما يأتي من مثله أن (كُثيرًا) أنشد عبد الملك بن مروان (15 صفحة 198):

على ابن أبي العاصي دلاص حصينةٌ أجادَ المُريءُ نسجها وأذالهـا
يـودُّ ضعيفُ القومِ حمل قتـيرها ويستظلعُ القرمُ الأشمُ احتماهما

فانتقده عبد الملك، وفضل على قوله قول الأعشى لقيس بن معدي يكرب (16 صفحة 33) حيث قال:

وإذا تجيء كتيبةٌ ملمومـةٌ شهباء يخشى الرَّهِدون نهالها
كنتَ المتقدَّم غير لابسٍ جُنّـةً بالسيفِ تضربُ مُعلما أبطالها

فأجابه كُثير بأنه وصف الأمير بالحزم ووصف الأعشى صاحبه بالمزقِ؛ أي إنه لاعقلَ له فكيف يبرز للقتال دون جُنّة؟ والذي عند قدامة في ذلك، إن عبد الملك أصح نظرًا من كُثير؛ لإنَّه قد تقدَّم من قولنا، في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه الكفاية، "والأعشى بالغ في وصف الشجاعة، حيث جعل الشجاع شديد الأقدام بغير جُنّة، على إنه وإن لبس جُنّة؛ أولى بالحزم وأحق بالصواب، ففي وصف الأعشى دليل قوي على شدَّة شجاعة صاحبه؛ لأن ليس له ولا لغيره إلَّا لبس الجُنّة، وقول كُثير تقصير بالوصف" (9 صفحة 168).

إذا رجعنا إلى ذكر مدائح الشعراء المحسنين، عند قدامة، من ذلك قول زهير بن سلمى (7 صفحة 45) :

يَطلبُ شأوَ أمرين قدّما حسنا نالا الملوك وبذّا هذه السّوقا
هوَ الجوادُ فإن يَلحقُ بشأوهما على تكليفــه فمثلهِ لَحُقا
أو يَسماهُ على ما كانَ منْ مَهلٍ فَمِثلُ ما قدّما من صالحٍ سَبَقا

و تجنب الوقوع في المبالغة، والنظر في صحة المعاني وسلامتها من الإفراط؛ فقد تصل الى حدّ المستحيل؛ فتُشوّه الصورة المرسومة كونها غير واقعية فكلما كان المدح ضمن حدود الإمكان كان الوصف أقرب الى النَّفس وضمن حدود العقل والصدق، فيقول حازم القرطاجني بهذا الصدد: "لا يخلو الشيء المقصود مدحه أو ذمه، من أن يوصف بما يكون فيه واجبًا أو ممكنًا، أو ممتنعًا، أو مستحيلًا، والوصف بالمستحيل أفحش ما يمكن أن يقع فيه جاهلٌ، أو غالطًا في هذه الصناعة، والممتنع قد يقع في الكلام إلَّا أن ذلك لا يستساغ، ألَّا يقع على جهة من المجاز والفرق بين الممتنع والمستحيل هو أن المستحيل هو الذي لا يمكن وقوعه أو تصوره مثل، أن يكون شيء طالعًا نازلًا في حال، والممتنع، هو الذي يتصور وأن لم يقع كتركيب عضو من حيوان على جسدِ حيوان آخر فمدار الأوصاف إذا؛ بالنظر الى ما يستساغ ويؤثر. أنما هو على ما كان واجبًا واقعًا، أو ممكن معتاد الوقوع أو مُقدّره والممكن لا يخلو أن تتوفر فيه دواعي الإمكان أو أن تقل: وكل ما توفرت دواعي الأماكن، كان الوصف أوقع في النَّفس وداخل في حيّز الصحة، ولهذا يُقال: ممكن قريب، وممكن بعيد" (11 الصفحات 133-135)

فهذا الترتيب يتبين ما لا يصحّ منها ولا يحسن فإن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى الى الإحالة قبيح، وما يصحّ ويحسن من المبالغة وقد خالف في هذا جماعة ممن لا تتحقق عنده في هذه الصناعة ولا بصيرة له بها، فاستحسنوا من المبالغة ما خرجَ عن حدِّ الحقيقة الى حيّز الاستحالة واحتجوا بمطالبة (النابغة) لـ{حسان بن ثابت} بالمبالغة في أوصافه حين أنشد قوله (17 صفحة 63):

لنا الجَفنات الغرُّ يَلمعَنَّ بالضُحى واسْيَافُنا تَقطرُنَ من نجدةٍ دَمَا

(فقيل له: قلّلت جفانك وسيوفك، ولو قلت الجفان والسيوف لكان أبلغ).

والبصراء بصناعة البلاغة والعارفون بما يجب فيها يقولون إنما طالب النابغةُ، حسانَ بمبالغة حقيقية وهي تكثير الجفان والسيوف فاستدرك عليه التقصير عمّا يكون فيه وصفا، ولــم يطالبه بتجاوز غاية الممكن والخروج إلى ما يستحيل، وإنما جرى الغلط على كثير من الناس في هذا الحديث لم يفرقوا بين الوصف الذي لا يخرج عن حدَّ الامكان، وإن لم يثبت وقوعه، وبين الخارج إلى حدِّ الاستحالة.

وغلَطتهم في ذلك أبيات وقعت فيها مبالغات خَفِيت عليهم فيها جهات الامكان فظنوا أنها مـن الممتنعة المستحيلة.

هذه هي أهم الخصال التي بُنِيَّ عليها المديح، هذا على إن كلَّ ما تَفرعَ منها يدخل نطاق المديح كان أفضل وأتم، على إن هناك مواضع تؤكِّد المدحَ وتصوره، وتضاعف من حسن تلك الخصال، يقول ابن طباطبا: "ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها، وتضاعف حسنها وتزيد في جلالة المتمسك بها كالجود في حالة العسر، موقعه فوق موقعه في حالة الجِدَة ، وفي حالى الصحو أحمد منه في حالة السكر، كما إن العفو في حالة المقدرة أجلُّ موقعاً منه في حالة العجز ، والشجاعة فـيحال مبارزة لأقران أحمدُ منها في حال الإحراج ووقوع الضرورة، والعفة في حال اعتراض الشهوات والتمكن من الهوى، أفضل منها في حال فقدان اللذات، واليأس من نيلها في حـال تبرج الدنيا ومطلعهما أحسن منها في حال اليأس وأنقاع الرجاء منها" (18 صفحة 19).

ويرى الباحث إن هذه الخصال وما يتفرع منها لا تصلح جميعها للمدح إلَّا ضمن شروط أهمها الصدق في أن هذه الخصال والصفات هي بالأصل موجودة في الممدوح فتكون الأبيات التي تتضمن تلك الخصال وكأنها وثيقة تخليد للممدوح،

ويبرز هذا أشدُ ما يبرز في قصائد زهير التي وصف بها هرم بن سنان. ونرى ذلك الشرط ليس عند العرب فقط بل نجد اشارة أرسطو الى ذلك في أدبهم اليوناني حيث يقول: "فالشاعـر والمُحـدِّث في المديح ينبغي أن تكون هيئة قوله، وشكله هيئة محقٍّ لاشاكَّ وهيئة جاد لاهازل" (19 صفحة 103).

ويرى الكثير في شعر زهير والصدق الذي توفر فيه أن رجلًا دخل على عمربن الخطاب –رَض- فسأله من أشعر الشعراء؟ قال: زهير فقال: ولم صيرته شاعر الأشعر؟ قال: لأنه لا يعاضل الكلمتين، ولا يمدح الرجل بغير ما فيه، ومن قال فيك ما ليس فيك، يوشك أن يقول ما ليس فيك" (20 صفحة 357).

فوصف (عمر بن الخطاب) –رض- زهيرًا بأنه لا يمدح الرجل إلَّا بما فيه، ومعنى هذا يثني على صدقه والتزامه الحقيقة فلا يتجاوز فيحشو مديحه بالغلو والاغراق والمبالغة وما الأصل له لكن قدامة ذكر إن النقاد اختلفوا في ذلك، فطائفة منهم يحسنون الغلو والمبالغة وغيرها وأخرى يرفضونه، ويقف قدامة نفسه بجانب الطائفة الأولى متمسكًا بإن أحسن الشعر أكذبه (9 صفحة 25)، نرى غلو النابغة في وصفهِ لسيوف الغساسنة، حيث قال (12 صفحة 48):

تقدُ السلوقيَّ المُضاعف نسجهُ و تُوقدُ في الصفاحِ نار الحباحبِ

ومهما يكن من أمرٍ، فقد كان الخلفاء يحبون المبالغة والإغراق في مدحهم، ويجزلون العطاء فيهما، ويُعقِب القرطاجني على كلامه في وصف هذه الأعمال الممدوحة على إن الإكثار منه والإسراف والمبالغة فيها يؤدي إلى انتقالها إلى الطرف المذموم، وهو بهذا يؤيد كلام قدامة بن جعفر السابق الذكر فيقول: "قد حكينا كلام أبي الفرج قدامة فلنتّبع ذلك باشارة إلى بيان قوله: (إن كلَّ واحدٍ من هذه الفضائل وسط بين طرفين مذمومين) فأقول: إن الفعل العائد بمنفعةٍ ما، إنما يحمد ما لم يعدْ وقع وسطًا بين هذهِ الطرفين كان محمودًا، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (خير الأمور أوسطها) إلا ترى إن الكرم إذا أُفرطَ عُدَّ إسرافاً وتبذيرا؟، والإقدام إذا أُفرط فهجم بصاحبه المتالف في كل حين وموطن عُدّ تهورًا وهوجًا، وإذا وقع التقصير في الأقدام والبذل بالجملة أو وقع في ذلك مالا اعتداد به عُدّ ذلك بخلًا وجبنًا، وقد تكون قلة الشيء بحيث لا يوجب عليه حمدًا ولا ذمًا" (11 صفحة 161).

ويتفق مع القرطاجني وقدامة، ابن رشيق، لكن نرى لديه استثناء في جانب الاغراق، بأن ممدوح الملوك له ما لا يتسع لغيره، فيقول: "إن الملوك لا تُمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة، وإنما تُمدح بالاغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم بذله. ومن هذا قول كُثير (15 صفحة 307):

رَأيتُ ابن ليلى يَعتَري صُلبَ مالهِ مسائلُ شتّى من غنى ومصرَمِ
مسـائلُ إن توجـد لديك تَجدْ بها يداكَ، وإن تُـظْلَمْ بها تَتَـظَلّمِ

لأن هذا إنما يقع لمن دون الخليفة والملك، وإنما أخذه من قول زهير في هرم بن سنان، وليس بملك، ولذلك حسن قوله:

هو الجوادُ الذي يُعـطيكَ نائلـه عَفوًا فَيَظلِمُ أحيانًا وحِينًا يُظلَمُ

يريد أنه يُسأَلُ أحيانًا ما ليسَ قِبَلَه فيحتمله" (13 الصفحات ج2/ 123-124)

رأي ابن رشيق هو أن الممدوحين يفضلون المبالغة والغلو في مدحهم، وهذا ما نلاحظه من الروايات في حُسن الصلات للشعراء الذين بالغوا في وصف الملوك والأمراء، هذا مما لا بأس به، بحيث لا يتعارض مع الحقيقة، لأن أهم ما يميز الشعر الجيد، هو الصدق الفني، يقول الجاحظ في البيان والتبيين: "وأعلم إن السّرَف لا بقاءَ معه لكثير، ولا تثمير مع قليل، ولا تَصُلح عليه دنيا ولا دين)) (21 صفحة ج1/ 113) ويؤكد الجاحظ على الصدق في الشعر في موضع آخر من كتابه فيقول : "و خير المديح ما وافق جمال الممدوح ، وأصدق الصفات، ما شاكل مذهب الموصوف وشهدَ له أعيان ظاهرٍ، والخبر المتظاهر، ومتى خالف هذه القضية وجانب الحقيقة، ضار المادح ولم ينفع الممدوح" (21 صفحة ج4/ 221)

المبحـث الثـانـي

الفضـائـل المـاديـــة

ذكرنا إن من أفضل المدائح ما كان حاوياً على الخصائص النفسية، وكلما أكثر الشاعر في وصف ممدوحة بهذهِ الخصائص كان مجيداً في مدحهِ ورأي قدامة بن جعفـر في (نقد الشعـر): "المديح الجاري على الصواب ما أنبأنا أنه الذي يقصد فيه المدح للشيء بفضائله الخاصـة به، لا بما هو عرضي به.

وجعلنا مديح الرجال مثالاً في ذلك، وذكرنا إن من قصد لمدحهم بالفضائل النفسية كان مصيباً، وجب أن يكون مايأتي به من المديح خلاف هذه الجهة التي ذكرناها في المنعوت معيباً. ومن الأمثلة الجياد في هذا الموضوع ما قاله عبد الملك بن مروان لعبيد الله بن الرقيات، حيث عتب عليه في مدحه إياه فقال له: إنك قلت في مصعب بن الزبير (22 صفحة 175):

إنما مصعبٌ شِهابٌ من الله تجـلّتْ عن وجهِ الظُلماءُ

وقلتَ فيّ (22 صفحة 5) :

يأتلق التـاجُ فوقَ مفرقِهِ على جبينٍ كأنه الذهـبُ

ووجه عتب عبد الملك إنما هو من أجل إن هذا المادح عَدل به عن بعض الفضائل النفسية، العقل، والعدل، والعفة، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم من بهاء، وزينـة، وقد كنا قد قدمنا ذلك غلط وعيب"(9 صفحة 184).

نرى في رأي قدامة هذا نظرة محدودة ومقتصرة فقط على الخصائص النفسية، وهو غير ذلك؛ لأن البيئة ارتضت ذلك قالت به، إذا كان المدح مشتملا" على هذه الأوصاف الشكلية (الجسمانية) فضلًا عن الخصائص النفسية.

ويّرد سبب نقد عبد الملك لابن الرقيات لأسباب سياسية، وذلك إن ابن الرقيات هو شاعر الزبيريين؛ فكان خصما" له، ففي نفس عبد الملك منه شيء.

ويُورد قدامة مثالاً آخر في المدح بالفضائل المادية عادةُ بأنه غير مدح على وجه الحقيقة فيقول: ((ومنه قول خزيم بن بشر بن مروان:

ياأبن الذوائبِ، والذرى والأروس والفرعُ من مُضَر العفرني الأنفس
ياأبن المكارمِ من قريش ذا العُلى وأبنَ الخلائفِ وأبن كل قَلّمسِ
من فــــرعٍ كابراً عن كـابرِ حتى أنتهتْ الى أبيكَ العنْبسَي
مروان أن قناتهُ خطّيـةٌ غُرسَتْ أرومتها أعزَّ المَغْرَسِ
وبَنَيتَ عند مقامِ رَبّكَ قبـة" خضراءَ كَللّ تاجَها بالفسفسِ
فسماؤها ذهَبٌ وأسفلَ أرضِها وَرِقٌ تلألأ في البهيم الخُنْدسِ

فما في هذه الأبيات شيءٌ يتعلق بالمدح الحقيقي، وذلك إن كثيراً من الناس لا يكونون كآبائهم في الفضل، فلم يصف الشاعر غير الآباء، ولم يصف الممدوح بفضيلة في نفسه أًصلاً، وذكر بعد ذلك بناءه قبةً، ثم وصف القبة بإنها من الذهب والفضة، وهذا أيضاً ليس من المدح،"لأن في الملك والثروة مع الصنعة والفهم ما يمكن معه بناء القباب الحسنـــة واتخاذ كل آلة فائقة، ولكن ليس ذلك مدحاً يعتد به، ولا جارياً على حقه" (9 صفحة 185)

ورأي قدامة هذا خالفه ونقده كثير من الأدباء والنقاد؛ لإن هذه الصفات وإن كانت صفات مادية لا فضل للإنسان فيها، إلاّ إنها من النِعَم التي يُحسد عليها في الدنيا، وينقل حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ردّ الآمدي على قول قدامة سابق الذكر فيقول :"وكان أبو الفرج قدامة، يذهب الى إن المدح بالحسن والجمال، والذم بالقبح والدمامة،

ليس بمدح على الحقيقة، ولاذمٍ على الصحة، ويخطئ من يمدح بهذا أو يذم بذاك، ويستدل بإنكار عبد الملك بن مروان قول قيس بن الرقيات" (11 صفحة 170)

يأتلق التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جبينٍ كأنهُ ذَهَبُ

وقد ردّ عليه الآمدي، وتابعه الخفاجي بالردّ عليه، فقال :" إن كان قدامة يعتقد إن ذلك ليس بفضيلة، لما كان الأنسان قد خُلق عليه فهذا حكم الفضائل النفسية، فأن الكريم قد خُلق كريمًا، والشجاع شجاعًا، فكما إن قبيح الوجه لا يقدر أن يستبدل صورةٍ غير صورته، فكذلك الجاهل أن يقدر أن يستفيد عقلاً فوق عقله" (11 صفحة 171).

واعتراضه هذا غير صحيح، لإن الحكماء المتكلمين في الفضائل، قد اتفقوا على إن الإنسان قد يقدر أن يكتسب بعض الفضائل بالتطبع، إن يستكمل كثيراً مما ينقصه من ذلك بالاعتياد والرياضة ومجاهدة النفس، فينقل برياضة النفس في ذلك حالاً فحالًا، حتى يصير الصعب قبل التطبع والإرتياض سهلًا بعدها. يؤكد رأي الباحث قول الجاحظ: "أوصيك برياضة النفس حتى تذللها على الأمور المحمودة؛ فإن كلّ أمرا" ممدوحٍ هو مما تستثقل النفوس" (14 صفحة ج1/ 117) ومازال الناس يروضون اخلاقهم بالتأدب والتدرب، فترتقي بذلك في مراتب الفضل درجاتهم وتهذب بعد الجفاء أخلاقهم.

يقول الجاحظ في الرسائل: "وقد أجمعت الحكماء، أنّ العقل المطبوع والكرم الغريزي، لا يبلغان غاية الكمال إلاّ بمعاونة العقل المكتسب، وأمثلوا ذلك بالنار والحطب، والمصباح والدّهن، وذلك إن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة، وإنما الأدب عقل غيرك تُزيّدهُ في عقلك" (14 صفحة ج1/ 113) .

وقد تبيّنَ أن رأي من رأى المدح بما ليس للإنسان فيه تصرف ولا له قدرة على تغييره عمّا هو عليه ممّا هو خارج عن الفضائل الأربع، موافق لما حكي عن العرب في ذلك. وإنما يمدح بما هو خارج عن الفضائل الأربع إذا كان مما شأنه أن توجد الفضائل ابداً بوجوده، فتوّرد كالأدلة على ذلك.

ومن الأمور والفضائل المادية التي ذكرها قدامة على أنها قبيحة في حق الممدوح قوله: "ومما نذكره في هذا الموضوع ليصحّ به شدة قبح هذا المدح قـول أشجع بن عمرو في المدح بما يخالف اليسار:

يريدُ الملوكُ ندى جعفرٍ ولا يَصنَعونَ كما يصنعُ

وليس بأوسعهم في الغنى ولـكن معروفهُ أوسـعُ

فقد أحسنَ هذا الشاعر، حيثُ لم يجعل الغنى واليسار فضيلةً، بل جعلها في غيرهمـا، فهذا المدح على غير الصواب؛ وذلك إنه أومأ الى المدح، والتناهي في الجود أولاً.

يوافق رأي أبن رشيق في أن الفضائل النفسية هي الأفضل في المديح ، ولكن هذا لا يقتصر على تلك الفضائل فقط، بل مما يزيد في جمال تصوير الممدوح ، هو ذكر الفضائل الجسمية أو العرضية التي تعطي صورة أجمل للممدوح ، وهذا ليس حكراً على العرب، فقد أورد الأديب الأغريقي (أرسطو) في كتابه (فن الشعر) رأي يوافق رأي ابن رشيق يقول : ((صناعة المديح تقوم على وصف الأمور المعنوية الشريفة ومن أراد الزيادة في تصوير ممدوحه، والأزادة في وصفه بالأمور الحسّية، فذلك مما يزيد في جمال تصوير الممدوح، وهذا مما لايوجد في أوصاف العرب، وقد ذُم من وصف بها، لكونهـا أمورًا غير ثابتة، وصفة الثبات عند العرب تقترن بالخلود" (19 صفحة 103).

ثم يقول في نفس الكتاب في موضع آخر: "فأول أجزاء صناعة المديح الشعري ،هو أن تحصي المعاني الشريفة التي بها يكون التخييل، تكسي تلك المعاني اللحن، واللحن، والوزن الملائمين للشيء المقول فيه وإنما كانت العادات والتقاليد والاعتقادات أعظم أجزاء المديح، لإن صناعة المديح، ليست هي صناعة تُحاكي الناس أنفسهم من جهة ماهم أشخاص ناسٍ محسوسون، بل إنما تحاكيهم من قبل عاداتهم الجميلة وأفعالهم الحسنة، واعتقاداتهم الجميلة التي تشمل الأفعال والخلق، ولذلك جعلت العادة أحد الأجزاء الستة" (19 صفحة 137).

فقد قيم أرسطو صناعة المديح الى ستة أجزاء هي: الأقاويل الخرافية، العادات، والوزن، والاعتقادات، والنظر – أعني الاستدلال لصواب الاعتقاد- فتكون أجزاء صناعة المديح ضرورةً ستة (19 صفحة 83).

فيقول:((وأما النظر فهو إبانة صواب الاعتقاد وكأنه كان عندهم من الاحتجاج لصواب اعتقاد الممدوح به، وهذا كله ليس يوجد في أشعار العرب، وإنما يوجد في الأقاويل الشرعية المديحية، وكانوا يحاكون هذه الثلاثة أشياء – أعني العادات – الاعتقادات – الاستدلال – بالثلاثة أصناف من الأشياء التي بها يحاكى ،أعني(القول – المخيّل) و(الوزن) و(اللحن)) (19 صفحة 86) ونفس الرأي يورده أبن رشيق في العمدة : "وأكثر ما يعوّل على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة ، فأن أضيفَ اليها فضائل عرضية أو جسمية : كالجمال، والأبهة، وبسطة الخلق، وسعة الدنيا، وكثرة العشير كما كان ذلك جيداً" (13 صفحة ج1/ 128).

الخـاتـمة

1- ركزَّ العرب في مديحهم، في المعاني، والخصائص النفسية، وعدَّوا مَنْ مدح بغيرها، بأنه ليس مديح على
2- الحقيقة، وفي ما بعد، أضاف النقاد المدح بالفضائل المادية؛ مع تطور العصر والبيئة.
3- بناء القصيدة المدحية، يكون بالألفاظ الجزلة، غير الغريبة، أو الخيلة، وخالية من الألفاظ السوقية، والعامية، لإنها موجهة إلى علية القوم، أو المراد نيّل رضاهم.
4- تكون معاني القصيدة المدحية، واضحة لا يشوبها شائبة، أو معنى يكون مشتركا في المعاني الوضيعة والاحتراز من الاتيان بالألفاظ، التي قد ترد في الهجاء، مع مراعاة مقامات الممدوحين.

قائمة المصادر:

1. **جرول بن أوس الحطيئة.** *ديوان الحطيئة*. [المحرر] نعمان أمين طه. مصر : مطبعة مصطفى البابي، 1958م.

2. **محمد مرتضى الزبيدي.** *تاج العروس في جواهر القاموس*. [المحرر] محب الدين مرتضى الحسينس. بيروت : دار الفكر، د-ت.

3. **عبد الملك مرتاض.** *قراءة جديدة لتراثنا النقدي*. جدة : مطبعة دار البلاد، 1990م.

4. **محمود ين عمرو الزمخشري.** *أساس البلاغة*. بيروت : دار النفائس، 2007م.

5. **مجد الدين محمد الفيروزالآبادي .** *القاموس المحيط*. [المحرر] أبو الوفا نصر الهوريني. بيروت : دار الكتب العلمية، 2009م.

6. **جمال الدين محمد ابن منظور.** *لسان العرب*. بيروت : دار صادر، د-ت.

7. **زهير بن أبي سلمى.** *ديوان زهير بن ابي سلمى* . بيروت : دار صادر، 2001م.

8. **محمد بن أحمد بن طباطبا.** *عيار الشعر*. [المحرر] عباس عبد الستار. بيروت : دار الكتب العلمية، د-ت.

9. **قدامة بن جعفر.** *نقد الشعر*. [المحرر] كمال مصطفى. القاهرة : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، 1963م.

10. **علي بن العباس ابن الرومي.** *ابن الرومي حياته من شعره*. [المحرر] عباس محمود العقاد. بيروت- لبنان : مساهمة مصرية، 1968م.

11. **حازم القرطاجني.** *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*. [المحرر] محمد بن حبيب الخوجة. بيروت : دار صادر، د-ت.

12. **زياد ين معاوية النابغة.** *ديوان النابغة الذبياني*. [المحرر] محمد الطاهر بن عاشور. تونس : الشركة التونسية للتوزيع، 1976م.

13. **الحسن القيرواني ابن رشيق.** *العمدة في فنون الشعر*. القاهرة : مكتبة الخانجي، 1934م.

14. **عثمان بن عمرو الجاحظ.** *الرسائل*. [المحرر] عبد السلام هارون. القاهرة : مكتبة الخانجي، 1968م.

15. **عبد الرحمن بن الأسود كثير.** *ديوان كثير عزة*. [المحرر] إحسان عباس. بيروت : دار الثقافة، د-ت.

16. **ميمون بن قيس الأعشى.** *ديوان الأعشى الكبير*. [المحرر] د. محمد حسين. مصر : مكتبة بالجماميزت، د-ت.

17. **حسان بن ثابت الأنصاري.** *ديوان حسان بن ثابت*. [المحرر] عبدا علي مهنا. بيروت : دار الكتب العلمية، 1994م.

18. **محمد بن أحمد ابن طباطبا.** *عيار الشعر*. [المحرر] عباس عبد الستار. بيروت : دار الكتب العلمية، د-ت.

19. **طاليس أرسطو.** *فن الشعر*. [المترجمون] عبد الرحمن بدوي. القاهرة : مكتبة الخانجي، 1953م.

20. **سعد أسماعيل شلبي.** *الأصول الفنية للشعر الجاهلي*. بيروت : دار صادر، 2009م.

21. **عثمان بن عمرو الجاحظ.** *البيان والتبيين*. [المحرر] عبد السلام هارون. القاهرة : مكتبة الخانجي، 1960م.

22. **عبيد الله بن قيس ابن الرقيات.** *ديوان عبيد الله بن الرقيات*. [المحرر] د.محمد يوسف نجم. بيروت : دار صادر، د-ت.